المحاضرة السادسة: قضايا التداولية في البلاغة والنقد

تمهيد

شهد الدّرس اللّغويّ كثيرا من التّطورات، وبخاصّة ما تعلّق بعلوم اللّسان الحديثة؛ وذلك للتّعالق القائم بينها من منطلقات تأسيسّية، ومن العلوم الّتي اقتحمت الدّرس اللسانيّ اللّسانيات التّداوليّة وهذا العلم الّذي أرسى قواعده في البحث اللّغويّ في كلّ العلوم ومن العلوم التي تعلقّ بها علم البلاغة، والنقد. إذا كانت التداولية هي علم استعمال اللغة وتعنى بكل من المتكلم والمخاطب، وظروف وملابسات التخاطب، فإن البلاغة العربية لم تكن بعيدة عن هذا المفهوم، إذ أنها العلم الذي يدرس العلاقة التخاطبية بين المتكلم والمخاطب حتى حذا ببعضهم القول أن البلاغة العربية تداولية في صميمها، وإذا كانت التداولية علم استعمال اللغة، فإن البلاغة هي المعرفة باللغة أثناء استعمالها. وبكلمة هي فن القول، ولذا يمكن القول أن حديث البلاغيين عن قضايا من قبيل المقام والسياق، والمقاصد، والخبر والإنشاء، وأطراف التخاطب ... هي في الحقيقة مباحث تداولية تؤكد على أن البلاغيين العرب قد مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته منهجا غربيا.

أوّلا: العلاقة بين التداولية والبلاغة

قد شكلت العلاقة بين البلاغة والتداولية عوامل ربط بين البلاغة وعلم اللغة، فموضوع البلاغة والتداولية هو استعمال اللغة بوصفها وسيلة تواصل بهدف ممارسة فعل على المتلقي، فالنص اللغوي هو نص تداولي، أي نص في موقف، ومن ثم يتفق المنظور البلاغي والتداولي في مراعاة الملابسات الخارجية والعناصر السياقية المختلفة في عملية التحليل؛لأن المتكلم في الأصل قد راعى هذه الظروف والملابسات المقامية التي تحقق لرسالته اللغوية أقصى درجات التواصل. تأثيراً أوإقناعاً. مع المتلقي، فالبلاغة نظام من التعليمات تستخدم في إنتاج النص. في بعدها المعياري. ومن ثم يصبح من المجدي أن ينتفع المحلل بمعرفة الأشكال البلاغية التي يستخدمها المرسل[1].

يذهب تمام حسان، إلى مواضع التلاقي بين مقولات التداولية وبعض المقولات في التراث البلاغي العربي، فقد علق على قول بليت": إن التداولية تقوم على مفهوم مقام الخطاب"بقوله: نحيل فيما يخص الحديث عن المقام في البلاغة العربية على البيان والتبيين للجاحظ، وبخاصة صحيفة بشر بن المعتمر، كما نحيل على مفهوم المعاني والبيان عند السكاكي في مفتاح العلوم"2، وإذا كان للنظريات الحديثة فضل يذكر في هذا المقام فهو فضل اللفت إلى فكرة خصبة من الأفكار التي ذاعت في التراث العربي- البلاغي والنحوي والأصولي والنقدي-بيد أنها لم تستثمر في الدرس البلاغي في الحقب التالية الاستثمار

الذي يثبتها نظرية لها أصولها وقواعدها، بالإضافة إلى ما كان يمكن أن يكون لها من إسهام في تحليل النصوص وتأويلها.

وقد كان مدخل جون سيرل لمعالجة بعض الظواهر البلاغية هو نظرية أفعال الكلام، وذكر من هذه الظواهر: الاستعارة والأفعال الكلامية غير المباشر والمفارقة، وقد أفرد الاستعارة ببحث مستقل نعرض له في موضعه، أما الأفعال الكلامية غير المباشرة فهي التي يقصد المتكلم فيها إلى شيء فوق ما يعينه المعنى الحرفي للجملة ومن ثم فإن المنطوق يشتمل على المعنى الحرفى ومقصد المتكلم، وذلك بخلاف المفارقة التي يعني فيها المتكلم عكس ما يعينه المعنى الحرفي3.

وقد ربط هنريش بليت التداولية بالظواهر البلاغية إذ ذهب إلى انتماء بعض الصور إلى التداولية: "الاستفهام باعتباره شبه سؤال، والحيرة باعتبارها شبه شك، والاعتراف وشبه الاعتراف، والامتياز وشبه الامتياز، والرخصة وشبه الرخصة"4 ثم بين أن "وضع هذه الصور في نسق يفترض تصنيف جميع أفعال الكلام الممكنة، وعلى هذه القاعدة يمكن إقامة نحو ثان للتواصل يولد جميع الصور التداولية5.

ولكن المعالجة الأكثر التصاقاً بالرؤية التداولية للظواهر البلاغية عند(بليت)قد ظهرت في مناقشته لفكرة الانزياح (الانحراف) الأسلوبي، إذ حدد هذا الانزياح في المجاز والكناية، وقد انطلق في توضيح البعد التداولي لها بوصفها صوراً سيميو - دلالية، تتلاقى مع الفكرة السابقة عن إقامة نحو ثان للتواصل يولد جميع الصور التداولية، مع فارق يرجع، إلى: "افتراض نموذج للواقع باعتباره (خلفية) وتتميز الصور الدلالية بطابع مرجعيتها الزائفة، وتلك هي خصوصية انزياحها عن المعيار الأولى، إن هذا المعيار قد أخذ شكلاً نسقياً في إطار (نحو مرجعي ثان)، وهذه الفئات تتوجه نحو المجازات التقليدية (استعارة، كناية، مجاز مرسل. . الخ) التي يمكن، بذلك، أن تكون موضوع معالجة مزدوجة"6

ثانيا: العلاقة بين التداولية والنقد

تتطور العلوم والمعارف بالتّراكم غالبا، إلا أن التّراكم وإضافة اللاّحق إلى السابق دون نقد السّابق وتمحيصه يؤول إلى الركود والجمود في مجال العلوم. واللّسانيات حقل معرفي بالغ الأهمية، برزت فيه نظريات واتجاهات متعددة، تدل على درجة التطور والرقي التي بلغتها علوم اللسان الحديثة في البلدان الغربية، والعامل البارز الذي كان دائما خلف أُفول نظرية لسانية وبروز أخرى أو استمرار نظرية في التطور إنما هو النقد اللساني. فالنقد هو محك المعرفة اللسانية ومُقوّم استمراريتها. ولقد اهتم الغربيون بالنقد اللساني ومارسوه بكل موضوعية فجاءت آثاره إيجابية على بحثهم اللساني. وقد انتقل البحث

اللساني الغربي الحديث إلى البلاد العربية وثارت نقاشات كثيرة حول مفرزاته، وبرزت إلى الساحة العربية إشكالات عديدة حوله، وتولّد عن توجهات اللسانين العرب المحدثين وآرائهم ونقاشاتهم نواة للنقد اللّساني، حيث عمد بعض الدارسين إلى تناول ما أنتجه اللسانيون العرب بالتحليل وعرضه على ميزان النقد، لذلك يُركز النقد البنيوي على التحليل الداخلي للنص؛ وبالمثل تهتم مدرسة النقد الجديد بالنص ولا شيء غير النص، مستبعدة دور المؤلف أو أي تضمينات سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو تاريخية أو نفسية. على العكس من ذلك يرى أصحاب النقد التفكيكي أن هناك تفسيرات لا حصر لها للنص وأن المعنى يكمن في القارئ ولا يحدده المؤلف. وبشكل مُشابه يهتم نقد استجابة القارئ بمعرفة استجابات القُراء للنصوص التي يقرؤونها، وكما أنهم يمتلكون شخصيات أيديولوجية وسياسية مختلفة فإن قراءاتهم للنصوص ستختلف حتمًا. أدى ظهور هذه المدرسة إلى ضرورة وجود نظرية نقدية تهتم بتأسيس قواعد عامة تُوضح عمل الأدب والنقد معاً. وهنا يجب أن نفرق بين النظرية النقدية (المرتبطة بمدرسة فرانكفورت) التي تُعنى بدراسة الثقافة والعلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية وبين النظرية النقدية الأدبية.

قد يكون النقد مَبنيّ على دراسة دقيقة للنص ذاته تشمل لغة النص وفكرته والعاطفة التي يحتويها، وقد يعتمد على تفسيرات وأحكام مُسبقة عنه، وقد يأخذ في الاعتبار كل ما يقود لفهم النص، وبما أن النقد هو الذوق للإبداع الأدبي، فقد يرافق هذا الذوق لذة أو عدم لذة يترتب عليهما حكم (رأي نقدي) يصب في صالح النص أو يقف ضده. وأخيراً يمكننا القول أن العلاقة بين الأدب والنقد تكاملية، فالأدب بحاجة للنقد والنقد بحاجة للأدب، فلا يمكن أن يَثمر إحداهما بمعزل عن الآخر.

الهوامش

1. برند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب، ص179.
2. هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية ص29، وتعليق د. محمد العمري في هامش الصحيفة نفسها، وقد عرض د. محمد العمري الفكرة نفسها في كتابه: بلاغة الخطاب الإقناعي.
3. john r. searl: ****phor,p92 .
4. هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، مرجع سابق، ص98.
5. هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، مرجع سابق، ص99.
6. هنريش بليت: البلاغة والأسلوبية، مرجع سابق، ص100.